الفصل الرابع

شهـــادات المصـــادرة

بيان وبلاغ من الشاعر
محمد عفيفى مطر
عن وقائع تعذيبه فى المعتقل

فى الثانية والنصف بعد منتصف الليل ، فجر الثانى من شهر مارس ١٩٩١ ، اقتحمت بيتى وغرفة نومى ، حيث أقيم فى قريتى رملة الأنجب ـ مركز أشمون ـ محافظة المنوفية ، قوة مسلحة بالرشاشات ، والعصى والدروع قام أفراد منها بقيادة ضباط بالملابس العسكرية والمدنية بالتفتيش الدقيق لمسكنى وكتبى وأوراقى الشخصية دون تقديم إذن من النيابة أو السلطات القضائية أو تحديد الغرض من هذا الهجوم المسلح المفزع ، وبعد التفتيش تم اقتيادى بالقيود الحديدية فى معصمى إلى عربة الترحيلات بين صفين من الجنود الذين يقفون وقفة الاستعداد لإطلاق الرصاص ، وتحركت بى عربة الترحيلات المحاطة بعربات القيادة والحراسة دون أن أعرف أو يعرف أهلى وجهة أو مكان الاعتقال الذى سأنتهى إليه ، وقد أقمت حتى منتصف نهار يوم ٢ / ٣ / ١٩٩١ فى حجز قسم بوليس شبين الكوم ، وبعد الإجراءات البوليسية المعتادة من تصوير وأخذ بصمات وبيانات ..... إلخ ، أخذت إلى عربة الترحيلات التى أسرعت بى وأسلمتنى إلى المسئولين فى مبنى مباحث أمن الدولة بميدان لاظوغلى بالقاهرة ، حيث بدأت على الفور إجراءات وممارسات التعذيب وإهدار الأدمية ضدى ، وترويعى وقهرى بطرق وأساليب يمكن تلخيصها فى :

١- وضع القيود المعدنية الحديثة التى تضيق حول الرسغين كلما تحركت اليد أدنى حركة مما يحيل اليدين والذراعين والكتفين إلى كتلة متداخلة من ألم التنميل وخدر الأعصاب التى يغيب الإحساس فى تدرج وبطء قاتلين ، وذلك مدة عشرة أيام هى مدة بقائى تحت التعذيب فى أمن الدولة بلاظوغلى .

٢- ربط العينين والأذنين برباط ضاغط كثيف لا يرفع أبداً ولا يعدل وضعه مما ينتج عنه تجمع الصديد وتحجره تحت الجفنين حتى يمتلئا بما يشبه أسنان الزجاج المهشم ، فتكون الحركة التلقائية للعينين والجفون المطبقة حركة شديدة الإيلام ، ويتورم لحم الأذنين ويلتصق بالرأس إلتصاقا قاسيا ، وتضغط عقدة الرباط على الجمجمة من الخلف ضغطاً يميت الإحساس بجلد الرأس ، ومع الضرب وإلقاء الجسد على طوله فوق الأرض بالوقوع المفاجئ تغوص عقدة الرباط

شيئا فشيئا داخل جلد الرأس ، وقد تخلف عن ذلك جرح عميق برأسي باتساع يكفي لدخول أصبعين فيه ، ظل ينزف وينز بالصديد أكثر من شهر ونصف الشهر ، حتى اندمل وترك أثره الذي يمكن رؤيته وتحسسه الآن ، وقد أحدث كل ذلك اضطراباً وضعفاً شديداً في إبصار عيني اليمنى .

٣- إرغامي على تناول عقار لا أعرفه " برشامتين صغيرتين " أكثر من مرة ، كان يحدث لي بسببه اضطراب شديد وهلوسة بصرية وسمعية أفقد فيها الوعي بمعايير وقيم الزمان والمكان ، وتتخطفني أخيلة شديدة الفوضى ، حتى أنه كان مما يعذبني أشد العذاب أن أتوهم وجود أهلي وأبنائي وأصدقائي متحلقين حولي في مشهد جماعي لرؤية تعذيبي وإهدار آدميتي وتهديدي بالقتل وانتهاك العرض ، وعيناي تحت الرباط الضاغط أتوهمهم رؤية وسماعاً ، وأعتقد أن هذا التأثير للعقار الذي أجبرت على ابتلاعه تأثير مقدر ومحسوب بدقة شديدة لتدمير الإرادة وأهلية الحكم والتقدير وتعرية اللاشعور والضمير وتحطيم بنية الشخصية والعقل .

٤- تعليقي كالذبيحة لمدد طويلة ، من يدي المقيدتين بالقيود الحديدية ووضع رباط يعصر قدمي معاً فلا أستطيع الاعتماد عليهما في الوقوف أو الحركة مما يجعل ثقل جسمي كله مرتكزاً على الرسغين المشبوكتين في شيء مرتفع لا أعرفه ، مع ضربي بالعصي وغيرها مما لا يعرف من أدوات الضرب ، وتطويح جسمي أثناء ذلك مما يسحقني بالألم والرعب ، وتهديدي بإدخال العصي بين فخذي .

٥- إدخال يدي الاثنتين في جهاز للصعق بالتيار الكهربي ، مما جعلني أعوي كالذئب الجريح ساعات طويلة وأتخبط محترقا بالألم والظمأ وانتفاضات التيار الكهربائي في أعضائي ، وقد كانت أطراف أصابعي كلها سوداء متهتكة ومتفحمة ، ومازالت أصابعي وظاهر كفي فاقدة للحساسية بدرجة كبيرة حتى الآن .

٦- خلع ملابسي والوقوف عارياً أمام تيارات هواء باردة قارسة الوخز لفترة طويلة لم ينقذني منها إلا بداية الدخول في حالة الإغماء .

٧- التعرض لعدد كبير من وجبات الضرب الشامل ، فتنهال الضربات الساحقة من كل ناحية وبإيقاع سريع مروع ، وسحق الفكين والوجه بالضربات الخاطفة المتقنة . مما ترك جسمي كله ملوناً بالخطوط والبقع الدموية الزرقاء الواسعة . وترك جرحا انكشفت منه عظام الأنف وآثاره ماتزال واضحة للعيان آية ودلالة على قدر الشاعر المثقف وقدرات السلطة في زماننا .

٨- التعرض لفترات طويلة من التجويع والحرمان من مقومات الحياة إلا في حدود الضرورة الدنيا لبقاء الحي حيا دون حساب لمرض أو دواء أو أغطية ، وجعل قضاء الحاجة مناسبة لإهدار الكرامة ، إذلالاً وإنهاكاً لبقايا الشعور بالآدمية .

الخبز الحافى : وثيقة الإدانة

د. سامية محرز

مقدمات : رودنسون ومن قبله

فى ١٣ أيار / مايو ١٩٩٨ ، وقبل حوال إسبوعين على إمتحانات الفصل الدراسى فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، ظهرت على صفحات جريدة الأهرام اليومية مقالة للكاتب الصحفى صلاح منتصر المعروف بصلته الوطيدة بالسلطة فى مصر ، عنوانها " كتاب يجب وقفه " طالب فيها بمصادرة كتاب المستشرق المعروف " ماكسيم رودنسون عن حياة الرسول محمد ، معتبرا أن الكتاب ومؤلفه يسيئان للإسلام والمسلمين وسيرة الرسول شخصياً .

ولأول مرة فى تاريخ التعليم الجامعى فى مصر تحركت الدولة ، على أرفع مستوياتها ، تحركاً مباشراً ، وبشكل غير مسبوق لوقف الكتاب وصادرته ، ووجه وزير التعليم العالى أمراً إلى رئيس الجامعة الأمريكية بسحب نسخ الكتاب فوراً من مكتبات الجامعة ومنافذ البيع فيها ، وقد جاء هذا على الرغم من أن الكتاب كان قد نشر منذ ما يقرب من أربعين عاما ١٩٦١ ، وأن مؤلفه اليهودى معروف فى العالم العربى بمواقفه المساندة للعرب وللإسلام ، وأن أجيالاً من المصريين درسوا بالفعل هذا الكتاب الموجود منذ تاريخ نشره فى مكتبات الجامعات المصرية لا فى الجامعة الأمريكية وحدها .

وكان صلاح منتصر قد استند فى مقاله ومطالبته بمصادرة الكتاب إلى شكوى وردت إليه من قبل أحد أولياء الأمور بالجامعة الأمريكية ، وتلك سابقة خطيرة حولت المادة التعليمية المتخصصة داخل المؤسسة الأكاديمية إلى قضية رأى عام تطرحها وتحكم عليها أقلام صحفيين غير متخصصين وغير مؤهلين لمثل هذه الأحكام ، والأدهى من ذلك أن ولى الأمر والصحفى اللذين هاجما الكتاب والمؤلف والمدرس الفرنسيين والجامعة الأمريكية لم يقرأ الكتاب باعتباره نصاً متكاملاً ، بل اكتفيا باقتباس بعض فقراته خارج السياق العام ، وتلك سابقة أخرى شديدة الخطورة من حيث إنها تؤسس لشرعية القراءة المجزوءة لأى نص وتفتح الباب لتكفيره ومصادرته هو ومؤلفه .

وقد هب رئيس الجامعة الأمريكية فورا لتنفيذ الأمر المباشر الذى جاءه من قبل الدولة المصرية ، وبادربإعلان اعتذار الجامعة الرسمى عن هذا الخطأ الفردى على الصفحة الأولى بجريدة الأهرام فى اليوم التالى وقام بسحب كل نسخ الكتاب الموجودة فى المكتبة وفى منافذ البيع بالجامعة ووضعها فى مكتبه .

وبطبيعة الحل أصبحت هذه القضية الشغل الشاغل للرأى العام المصرى والطبق الرئيسى على مائدة الجرائد الرسمية والمعارضة ، خاصة أن عناصرها المكونة جميعها ساهمت فى طبخ وتسبيك سيناريو تآمرى يفضح " الإمبريالية الثقافية " و " الصهيونية العالمية " و " صدام الحضارات " وما إلى ذلك ، أى أن القضية قدمت لقراء الجرائد المصرية " طبقا دسما " بمكونات فاتحة للشهية لا يشبع منها المرء فالمؤلف يهودى ، والكتاب عن حياة رسول المسلمين ، والمدرس فرنسى ، والجامعة أمريكية ولها سمعة قديمة الأزل فى أذهان المصريين بشكل عام أو للمثقفين بشكل خاص بأنها مؤسسة تخدم المصالح الأمريكية ، وتعمل على تخريب عقول الصفوة المصرية ، فما أشهى هذه الوصفة ؟

وللحق ، فقد برزت أقلام صحفية مصرية عقلانية تحترم مكانة المؤسسة التعليمية ، وبديهيات التخصص العلمى والقراءة النقدية والانفتاح على الرأى الآخر ، فتبنت القضية ودافعت عن الكتاب وعن مؤلفه ومدرسه ، وعابت على الجامعة الأمريكية موقف إدارتها المتخاذل أما داخل الجامعة الأمريكية نفسها فقد قامت الدنيا ولم تقعد على أثر اعتذار رئيس الجامعة على صفحات الأهرام وتوصيفه لما حدث على أنه " خطأ فردى " وتخليه التام عن الفلسفة التعليمية فى الجامعة الأمريكية بالذات وعن مبادئها فى التعليم الحر الذى يحث الطلاب لا على الحفظ والصم ، وإنما على التحليل النقدى وأهمية التسلح بوجهات النظر المختلفة حول الموضوع الواحد ، صحيح أن الزملاء والزميلات داخل الجامعة وخارجها وقفوا فى أغلبيتهم وراء زميلهم الفرنسى السيئ الحظ ، الذى انهالت عليه الصحف الصفراء بالسب والقذف إلا أن إدارة الجامعة لم تجدد له عقد التدريس فى السنة الدراسية التالية متذرعة بعدم حاجتها إلى أساتذة فى هذه المادة واكتفائها بعدد أقل من المتخصصين !

وكما يتبدى لقارئ هذا العرض السريع لأزمة كتاب رودنسون فى الجامعة الأمريكية ، فإن الدروس المستفادة متعددة المستوى ، واللبيب من الإشارة يفهم ، " والتكرار يعلم الحمار " خاصة أن هذه الأزمة حدثت فى سياق سلسلة من

الأزمات الحادة التى تعرضت فيها الثقافة بشكل عام لهجمات قاتلة كان من بين ضحاياها المفكر فرج فوده الذى أغتيل عام ١٩٩٢ ، والكاتب الكبير نجيب محفوظ الذى طعن فى رقبته عام ١٩٩٤ ، والأستاذ الجامعى المعروف نصر حامد أبو زيد الذى أضطر إلى مغادرة البلاد إثر تكفيره والحكم بتفريقه عن زوجته عام ١٩٩٣ - ١٩٩٦ .

أنا والخبز الحافى

كنت فى إجازة بحثية عندما اشتعلت أزمة رودنسون والزميل الفرنسى مدرس الكتاب ، لذا فقد راقبت تطور الأحداث عن بعد ، ووصلتنى عن طريق الزملاء مسودة بيان صاغته عميدة كلية الآداب والعلوم الإنسانية آنذاك يرد على تدخل السلطة المصرية المباشر فى مناهج التعليم الجامعى بشكل عام ، كان البيان جريئا فى مواجهته ، حاداً فى خطابه ، لكننى أعرف أن تلك المسودة لم تخرج من مكتب رئيس الجامعة وظل تحليلى للأزمة تحليلاً شبه ساذج ، ملخصه أن الجامعة الأمريكية لها فلسفة فى التعليم يعرب عنها خطاب العميد حتى وإن لم ير النور ، أى أن القائمين على العملية التعليمية كانوا على استعداد لمواجهة الأزمة والدفاع عن موقف الجامعة وأستاذها ، واعتبرت أن الخطأ الفردى الوحيد الذى ارتكب أثناء هذه الأزمة هو الخطأ الذى ارتكبه رئيس الجامعة نفسه ، فقد تصادف فى ذلك العام أن ترأس الجامعة رئيس مؤقت تقلد منصبه لمدة عام واحد ، وظننت أن منصبه المؤقت وعدم درايته الكافية ببواطن الأمور هما اللذان دفعاه دفعا إلى المبادرة بالاعتذار على صفحات الجرائد الرسمية ، واقنعت نفسى أنه لو كان الرئيس رئيسا حقا واعيا وعيا كاملا بأبعاد فعله ، لما رأينا هذا الاعتذار المشين الذى عارضه أساتذة الجامعة بشكل واضح واعتبرت أيضا أن مستوى التدخل من قبل الدولة المصرية على أرفع مستوياتها قد وضع الجامعة برئيسها المؤقت " مكانها " باعتبارها مؤسسة أجنبية يجب عليها فى النهاية - على الأقل على المستوى الرسمى - أن تذعن لسياسات الدولة المضيفة خاصة عندما تعلن عن نفسها بهذا الشكل الاستثنائى غير المسبوق .

انتهى العام الدراسى بعد الأزمة بحوالى أسبوعين ورحل الزميل الفرنسى عن قسمنا فى الجامعة ، وترحمت أنا على إجازتى البحثية التى كانت قد أوشكت على الانتهاء ، واستعددت للعام الدراسى الجديد وأنا أقول لنفسى مازحة " سندرس مجلات كسمير وميكى عما قريب حتى نحافظ على ثوابت الأمة " لكننى فى الواقع لم أدرس سمير وميكى بل اخترت أن أدرس فى فصلى الدراسى عن

الأدب العربى الحديث نص الخبز الحافى السيرة الذاتية الروائية لمحمد شكرى الكاتب المغربى المعروف بموقعه المتفرد فى الإنتاج الأدبى العربى الحديث .

لم يكن اختيارى هذا تحدياً أو رداً على ما كان قد حدث فى العام الدراسى المنصرف ، كان اختيارى لنص الخبز الحافى فى هذا السياق اختياراً روتينياً بحتاً ، أى أننى كنت قد أثرت منذ تدريسى لمادة الأدب العربى الحديث أن أغير وأبدل من النصوص العربية الحديثة المطروحة على الطلاب إنصافا للكم الهائل من الإنتاج الأدبى المتاح على مستوى المنطقة العربية بأكملها ، وعلى خلاف الحال فى الجامعات القومية ، فإن الفصول الدراسية فى الجامعة الأمريكية خاصة فى مجال الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية ليست قائمة على " المقرر " وإنما فى فصول تترك الحرية للأساتذة فى اختيار نصوص تطرح قضايا محورية فى مجال التخصص يناقشها الطلاب مناقشة تحليلية نقدية واعية .

وفى واقع الأمر لم تكن تلك المرة الأولى التى أدرس فيها الخبز الحافى ، بل كنت قد درسته من قبل فى فصل دراسى آخر ولم أكن الأستاذة الوحيدة التى قررت النص على طلابها ، بل كان النص موجوداً على قائمة النصوص المقررة لدى زميلة أخرى فى فصل دراسى سابق .

زد على ذلك أن الخبز الحافى من النصوص التى حظيت باهتمام وترحيب فى أوساط النقد الأدبى العربى على وجه الخصوص ، وكذا فى الأوساط العالمية إذ ترجم إلى أكثر من ١٢ لغة وكتبت عنه رسائل جامعية فى أنحاء المعمورة كلها ، إنه إذن نص ممكن إعتباره نصاً " كلاسيكياً " من نصوص الأدب العربى الحديث على الرغم من كونه صادماً ، لذا فبالنسبة إلى لم يكن هناك بجديد ، أو لتقل إننى لم أكن أعى أن هناك جديداً يجب أن يؤخذ فى الاعتبار .

وكما كانت الحال فى أزمة كتاب رودنسون كان الفصل الدراسى الأول من عام ١٩٩٨ ـ ١٩٩٩ قد أوشك على الانتهاء وكان الخبز الحافى هو النص قبل الأخير فى النصوص المطروحة على الطلاب فى فصلى ، وذلك من منطلق عدة قناعات فى تحديدى لتسلسل النصوص : أولاً : الإطار التاريخى لتطور الأدب العربى الحديث بشكل عام ، وتطور إشكاليات هذا الأدب على مدى القرن العشرين واليات التعبير عنها . ثانيا : أن الخبز الحافى يعتبر بالفعل نصاً صادماً من حيث موقفه من مجموع القيم الأخلاقية والجمالية المطروحة على قراء

الطبقة الوسطى ، عرباً كانوا أو أجانب لذا فهو نص يتطلب تدريباً مسبقاً على القراءة الأدبية النقدية الواعية التى تستدعى قدراً عالياً من القدرة على التأويل ، وكلها أساليب فى القراءة يمارسها الطلاب مرارا فى قراءتهم للنصوص أثناء الفصل الدراسى . ثالثا : أن فصل الأدب العربى الحديث يتناول بشكل واضح ، ومن خلال كل النصوص علاقة الأدب بالمجتمع وعلاقة الأديب بالواقع ، وتطور تلك العلاقة فى الأدب العربى المعاصر ، ونص الخبز الحافى مثله مثل نص " تلك الرائحة " للروائى المصرى صنع الله إبراهيم على سبيل المثال ، من النصوص التى أحدثت ثورة فى تحديد العلاقة بين الأديب والواقع داخل النص الأدبى ذاته وفى كيفية التعبير عن ذلك ، فنص محمد شكرى يقدم من خلال محاكاته لسيرته الذاتية ، واقعا تحتيا قاسيا ومهمشا تهميشا متعمدا على الرغم من انتشاره الفج فى حياتنا اليومية ، فالجامعة الأمريكية جامعة الصفوة موجودة فى قلب وسط القاهرة على بعد خطوات من ميدان التحرير ، مبانيها مترامية ومتفرقة وهذا ما يضطر طلابها وطالباتها ، - أصحاب السيارات الفخمة والملابس المستوردة والمجوهرات الثمينة - إلى خوض شوارع القاهرة الممتلئة بالشخصيات الهامشية المهمشة : فالمعذبون فى الأرض من نساء وأطفال وشباب يرقدون فى التراب على كراتين متسخة فى ملابس مهلهلة تكاد لا تغطى أجسادهم النحيلة ، نراهم يوميا ونحن نعبر هذه الشوارع غير مبالين بوجودهم ، وفجأة يأتى نص الخبز الحافى على لسان أحد هؤلاء المعذبين فى الأرض ليعرى بشكل غير مسبوق واقع كل هؤلاء بجرأة وبدون تزيين لتلك الحياة غير الآدمية لقطاعات عريضة من البشر ، هذا الواقع الصادم واقع نحاول باستمرار إسكاته إلا أن الخبز الحافى يجعل ذلك مستحيلاً على القارئ .

زد على ذلك موقف النص ومؤلفه من قضايا محورية ، مثل العلاقة بين الكتابة والحرية والتعليم والتعبير والسكوت والبوح وأخيراً فإن من أهداف الفصل الدراسى توعية الطلاب بماهية الأدب على مدى التاريخ وأن النصوص الطليعية دائماً ما تكون ثائرة صادمة ، خارجة على التقليد والتقاليد - سواء كانت اجتماعية أو جمالية .

المحاكمات

فى يوم ١٧ ديسمبر ١٩٩٨ ولم يكن قد مضى على أزمة كتاب رودنسون أكثر من سبعة أشهر ، استدعيت من وسط محاضرتى فى فصل الأدب العربى الحديث إلى مكتب رئيس الجامعة الأمريكية أمام أعين طلابى المبهوتين لمثل ذلك الإجراء

الاستثنائى وهناك مثلت أمام " اللجنة " مجلس مكون من إدارة الجامعة وشخص لا أعرفه قط اتضح فيما بعد أنه طبيب فى العيادة الخارجية للجامعة الأمريكية وبسرعة فهمت من سيل الاتهامات التى انهال على بها ذلك الطبيب - همزة الوصل بين الجامعة وأولياء الأمور أصحابه - أن سيناريو أزمة كتاب رودنسون يعاد من جديد وأننى سأمثل دور زميلى الفرنسى الذى كان قد ترك الجامعة فى صمت فقد تقدم اثنان من أولياء الأمور بشكوى ضدى لدى صديقهم طبيب الجامعة الأمريكية وذلك لتدريسى كتابا يخل بالآداب العامة مطالبين برفع الكتاب من قائمة الكتب المقررة ومهددين بفضح الموضوع برمته على صفحات الجرائد إذا لم تذعن الجامعة لمطلبهم وتعمل على تأديبى .

لن أخوض هنا فى تفاصيل محاكمة " اللجنة " فكلها منشورة ، لكن المثير والمقلق فى الموضوع هو تكرار الآليات نفسها التى كانت قد وظفت أثناء أزمة كتاب رودنسون فقد كانت اللجنة قد حضرت صفحات مقتطعة من سياقها فى نص الخبز الحافى مصورة ومترجمة إلى الإنجليزية لتمكين أعضاء الإدارة الأمريكية من قراءتها ، وضعت جميعها على مائدة صغيرة أمامى ، وبالطبع لم تكن اللجنة قد قرأت الخبز الحافى ، ولا حاولت تقصى أى حقائق علمية دقيقة حوله بوصفه نصا أدبيا حديثا معروفا ومترجما إلى أكثر من ١٢ لغة ، وتدرسه أساتذة عملت بالمؤسسة على مدى عشر سنوات ، وكما فى سيناريو رودنسون ضربت اللجنة عرض الحائط بالأعراف المتبعة فى التعاطى مع شكاوى الطلاب أو أولياء أمورهم ، ففى المعتاد تأتى الشكوى أولاً إلى الأستاذ ، وعندما لا تجد طريقها إلى الحل ، تتسلق كوادر الإدارة داخل الجامعة بدءاً برئيس القسم ومروراً بالعميد وانتهاءً برءيس الجامعة نفسه .

إلا أنه فى هذه المرة بدا واضحا أن أولياء الأمور قدموا للجامعة ، من خلال وساطة صديقهم الطبيب فرصة ذهبية لم تتح للإدارة أثناء أزمة كتاب رودنسون ألا وهى أن تجلد الجامعة نفسها بنفسها قبل أن تفعل ذلك الصحافة المصرية المترقبة لأى فضيحة من الجامعة خاصة أن أزمة الخبز الحافى تزامنت مع الضرب الأمريكى / البريطانى المشترك على العراق فى كانون الأول / ديسمبر ١٩٩٨ .

وبعد حوالى ساعة من الجولات الاتهامية من قبل اللجنة ، والدفاعية من قبلى ، توصلنا إلى حل أن نقلقل الفصل الدراسى ، ولن أسحب الخبز الحافى من قائمة

النصوص ، وإنما سأعطى الطلاب اختياراً أوسع لكتابة الورقة البحثية فى آخر الفصل الدراسى ، ولكن على الرغم من إصرارى على عدم سحب الكتاب فقد فوجئت بالإدارة تعلن داخل أروقة الجامعة أننى قد وعدت بعدم تدريسى ذلك النص مرة أخرى وأن الموضوع قد حسم .

أمضيت عشرة أيام من الصراع هل أصمت وأحمد الله أن الموضوع قد انتهى على خير ؟ أم أبوح وأتحمل العواقب ؟ وإذا كانت الإدارة قد تصورت أنها لملمت الموضوع برمته ونجحت فى تجنب الفضيحة فى الصحافة المصرية فكيف لى أن ألملمه مع نفسى ومع طلابى ومع كلامى عن حرية التعبير ؟

قطعت الشك باليقين . وكتبت خطاباً مفتوحاً إلى زملائى أساتذة الجامعة الأمريكية أقص فيه تفاصيل ما تعرضت له بعيداً عن أعينهم ، وأسائل الإدارة عن موقفها الملتبس من المبادئ التعليمية المعلنة للأكاديمية وادعو زملائى إلى المشاركة فى الحوار المفتوح نص هذا الخطاب والرد عليه متاحان على الانترنت .

توهمت أننى أخاطب زملائى فى الجامعة عبر البريد الإلكترونى وأن القضية تطرح وستحل داخل أسوار الجامعة إلا أن نص خطابى سرب إلى أولياء الأمور المتضررين ، فاعتبروا ذلك تحديا منى ، ولأن الإدارة تراجعت ، مرة بالاعتذار " غير الرسمى " ومرة من خلال تأكيدها على الحرص على حرية التعبير والحرية الأكاديمية ، فقد أعتبر أولياء الأمور موقفها ضعيفاً بالمقارنة مع موقف الإدارة السابقة التى كانت قد هرعت إلى مصادرة نص رودنسون والاستغناء عن خدمات الزميل الفرنسى بسرعة .

وثيقة الإدانة

كانت الأزمة بينى وبين الإدارة فى الجامعة قد شارفت على الانتهاء عندما استدعيت إلى مكتب رئيس الجامعة مرة أخرى ليطلعنى على نص خطاب مكتوب بالعربية ومترجم ترجمة حرفية إلى الإنجليزية بعث به " مجموعة من أولياء الأمور " بدون أى توقيعات " نص الخطاب بالإنجليزية وارد ضمن هذا المقال ، وكذلك ترجمته إلى العربية " وأصبح على مدار حوالى ستة أشهر أساس الحملة الإعلامية الهجومية ضدى وضد الكاتب محمد شكرى رحمه الله ونصه الخبز الحافى ، والمثير حقا حتى اليوم وهو كيف وجد هذا الخطاب غير الموقع طريقه إلى مكتب رئيس الجامعة ، علماً بأن الجامعة لا تقبل التعامل مع خطابات من غير

توقيع ؟

ثم سرب نص هذا الخطاب إلى الجرائد القومية ، فخرجت أزمة الخبز الحافى من داخل المؤسسة الأكاديمية إلى الساحة العامة لتصبح قضية رأى عام تداولتها الجرائد المصرية والعربية والعالمية ، وشارك فيها العديد من المثقفين المصريين والعرب والأجانب ، بل ومجلس الشعب المصرى ذاته ، الذى وجه استجواباً إلى وزير التعليم العالى بخصوص الأزمة ، وطلب بمعاقبتى وإقصائى عن التدريس فاضطر الوزير أن يعلن أنه لن يعاقبنى لأننى قد هددت بمقاضاة رئيس الجامعة الأمريكية لتعديه على حريتى الأكاديمية (رغم أننى لم أفعل ذلك ولم أكن أنويه ، علما بأن العديد من الزملاء كانوا قد اقترحوا على هذا الحل إذا تصعدت الأمور).

طارت أخبار الأزمة على البريد الإلكترونى فتابعها عدد غفير من الزميلات والزملاء فى الخارج وتزامن تفاقم الأزمة مع وجود صديقة الدراسة وزميلة العمر الأستاذة الراحلة ماجدة النويهى ، أستاذة الأدب العربى فى جامعة كولومبيا فى القاهرة .

وفى تصعيد آخر للأزمة خابرنى عضو من أعضاء اللجنة فى منزلى ، مقترحاً على إجازة من الجامعة حتى تستتب الأمور ، هنا تيقنت أننى لن أصمد طويلا وحدى ، وبالفعل هب الزميلان محمد صديق ، أستاذ الأدب العربى بجامعة بيركلى وماجدة النويهى لمساندتى ، وقاما بنشر نداء على البريد الإلكترونى للدفاع عن حرية التعبير ، وتصديا للمعركة بشكل يومى لن تسعفنى الكلمات فى التعبير عن مدى جسارته وفى داخل الجامعة التفت حولى مجموعة من الزميلات والزملاء على رأسهم الدكتورة فريال غزوال ، أستاذتى التى علمتنى الصمود فى المحن ، وقد دفع الزملاء الأصغر سنا المتضامنون معى الثمن غاليا ، وتعرضوا لألوان شتى من القمع والتهميش أما على الصعيد العالمى فقد انهالت رسائل التضامن على إدارة الجامعة مدافعة عن الحرية الأكاديمية وحرية التعبير ، ووصل عددها على مدار الأزمة إلى حوالى ٣٠٠ خطاب من أساتذة وجامعات وأقسام وطلاب وأناس آخرين لا أعرفهم قط ، وتوجت هذه الحركة التضامنية الهائلة بمقالة للدكتور إدوارد سعيد نشرت فى جريدة الأهرام ويكلى الأسبوعية بالإنجليزية فى أول شباط / فبراير ١٩٩٩ كان عنوانها " الأدب والحرفية " ثم تصادف أن منحت الجامعة الأمريكية الدكتور إدوارد سعيد شهادة دكتوراه

فخرية فى العام نفسه ، فتصيد الفرصة والقى خطاباً رائعاً أمام دفعة خريجى الجامعة الأمريكية دافع فيه عن الحرية الأكاديمية وحرية التعبير ، كان خطاب سعيد هو الضربة القاضية بعد جولات دارت على مدى أكثر من ستة أشهر ، شارك فيها الكاتب المغربى محمد شكرى نفسه ببرقية تضامنية دفاعاً عنى و عن حرية القلم .

كانت أزمة الخبز الحافى درساً هائلاً فى الصمود والتضامن من أجل مبادئ نراها تتقلص يوميا ، ولكن فى الوقت نفسه ، كانت درساً عن قوة المؤسسات ووطأتها وصعوبة المواجهة وتحقق الحلم بالتغيير .

كنت قد طويت أوراق الخبز الحافى منذ أزل عندما اقترح على الزميل سماح إدريس أن أكتب شهادة مقالة عن الأزمة فاعتبرت أنه من شرف المهنة أن أعلم إدارة الجامعة الأمريكية بقبولى هذا العرض ، واختيارى لنص خطاب أولياء أمور الطلاب نصاً محورياً فى قراءة أبعاد الأزمة ، وفى مقابلة ودية بينى وبين أحد أعضاء الإدارة طرحت فكرة المقال فذكرنى الزميل بأن خطاب أولياء الأمور تقدم به اثنان فقط من الأهل ، أى أنه لا يمثل فى الواقع موقف الغالبية ، وأنه قد يكون خطيرا أن أستنتج مواقف عامة من هذا النص غير الموقع .

ولكن هذا النص الذى كتبه اثنان فقط من أولياء الأمور من غير توقيع أصبح وثيقة الإدارة على مستوى المجتمع المصرى بأسره ، الذى تتبع أزمة الخبز الحافى يوميا فى كل الجرائد المصرية والعربية ، فقد تبنت الصحافة الصفراء نص الخطاب حرفياً ، فتحول من كونه خطاباً مجهول الهوية إلى خطاب جمعى يثير مجموعة من القضايا المحورية ، من بينها : قضية التخصيص وموقع الإنتاج الأدبى فى المجتمع بشكل عام وقضية العلاقة بين المؤسسة والأكاديمية ومفهوم التعليم الحر فى إطار مجتمع يتقلص فيه مفهوم الحريات وقضية السلطة والمعرفة وآليات الرقابة والعقاب التى تستهدف حرية التعبير وحرية الإبداع فى العالم العربى وقضية المواطنة ودور المؤسسة الأكاديمية فى إرساء معالمها فى مواجهة مجتمع يتعامل مع شبابه من منطق أنهم أطفال .

لذا فقد آثرت اعتبار نص خطاب أولياء الأمور لب القضية ، وفيما يلى محاولة للاقتراب منه بعد أكثر من ثلاثة أعوام ساعدتنى على مواجهته بعيداً عن التجريح والألم الشخصى ، وأود أن أقرأ نص ذلك الخطاب فى مقابل مساهمات الدكتور

إدوارد سعيد أثناء أزمة الخبز الحافى وتلك المقابلة بين مستويين من الخطاب تعرى الأزمة الحقيقية التى تواجه الثقافة العربية بشكل عام والمثقف بشكل خاص فى صراعه من أجل هامش أوسع من الحرية .

قراءة الإدانة

فى أثناء أزمة الخبز الحافى اتسم قسم الدراسات العربية بالجامعة الأمريكية الذى انتمى إليه بين متضامن معى وساهجم لموقفى ووجهت إلى داخل القسم تهمة " التحرش الجنسى بطلابى " (!) ، وهذه وقائع مدونة فى محاضر اجتماعات القسم أثناء الأزمة وتطوع بعض الزملاء بكتابة خطاب فى جريدة الوفد التى نشرت أول مقال هجومى ضدى لإنقاذ ما يمكن إنقاذه بعد " الفضيحة " بتاريخ ١١ يناير ١٩٩٩ ، وبتوقيع رئيس قسم الدراسات العربية آنذاك وتبنى ذلك الخطاب الموقف الذى كانت قد تبنته الإدارة الأمريكية بالجامعة أثناء أزمة كتاب رودنسون ، أى أن الخطاب اعتبرتدريسى لنص الخبز الحافى فى فصل الأدب العربى الحديث " خطأ فردياً " خارجاً على أنماط التدريس داخل القسم ووجدت نفسى فى معركة مزدوجة ، وأيقنت سريعاً أن القضية ليست فقط قضية أولياء أمور متضررين وإنما قضية السلطة الثقافية داخل الأكاديمية نفسها ، وبدا لى فجأة أن أزمة الخبز الحافى لا تختلف كثيراً عن أزمة الدكتور نصر حامد أبو زيد داخل قسمه فى جامعة القاهرة .

عقوبة الرقابة الشاقة المؤبدة

د. محمد كامل القليوبى

منذ أكثر من عشرة أعوام امتدت أيدٍ آثمة فى جهاز الرقابة على المصنفات الفنية لتعمل فى نسخة القيديو المعدة للتوزيع فيلمى " ثلاثة على الطريق " حذفا وتشويها ، ولما كان الفيلم " قصة لا مناظر " فقد انصبت جهود هذه الفئة الضالة من الرقباء على حذف مقاطع كاملة من شريط الصوت بحيث يبدو الممثلون وهم يفتحون أفواههم ويغلقونها دون أن تسمع أصواتهم وقد تم ذلك الحذف بالتحديد لكل ما هو سياسى حيث كان هذا الفيلم أول فيلم مصرى يتناول قضية الفتنة الطائفية والإرهاب .

وعلى الرغم من عرض الفيلم كاملا فى دور العرض لمدة أسبوع طلب حسن الالفى وزير الداخلية وقتها من المنتج عادل حسنى " وبصورة شخصية " أن يحذف بعض المشاهد من الفيلم ، فأرسل المنتج مندوبيه ليمروا على دور العرض ، ويقوموا باستئصال الأجزاء التى طلب وزير الداخلية حذفها ، وكان بعض مندوبى المنتج يخطئون أحيانا فيقومون بحذف أجزاء أخرى غير مطلوب حذفها والإبقاء على أجزاء مثلما حدث مع هذا الفيلم ، والغريب أن قانون الرقابة على المصنفات الفنية يجرم أى حذف أو إضافة على النسخة المجازة للعرض ، ولكن عندما يسيطر الهلع على الجميع فلا وجود ولا احترام لأى قانون كان وتضرب بجميع القواعد والأعراف عرض الحائط ولقد تبع ذلك السلوك الإجرامى تجاه هذا الفيلم مهزلة دولية عند عرضه فى المسابقة الرسمية بمهرجان فالنسيا لدول البحر المتوسط بأسبانيا عام ١٩٩٢ حيث تم الشطب على الترجمة الفرنسية على شريط الفيلم للأجزاء التى لم تعجب وزير الداخلية الذى تدخل فى عمل الرقابة لمقاومة فيلم ضد الإرهاب واهمل مكافحة الإرهاب نفسه حتى حدثت مذبحة الأقصر وتمت الإطاحة به غير مأسوف عليه ، أما هؤلاء المرتعدون فى دهاليز الرقابة فلقد أعملوا فى نسخة الفيديو المعدة للتوزيع حذفا وتشويها كوزراء داخلية أكثر من وزير الداخلية نفسه ، ولقد فوجئت بهذه الجريمة النكراء وشرائط الفيديو فى جميع منافذ التوزيع دون وسيلة لرد هذه الجريمة أو مقاومتها .

ولحسن حظى وحظ كل أصحاب الكلمة والرأى وبعد أن أصبحنا فى عصر السماوات المفتوحة وعبر فضائيات العالم الذى تحول إلى قرية كونية كبيرة ثم تحريرنا كمبدعين ومثقفين ومفكرين إلى عسف وتسلط أجهزتنا الرقابية المتخلفة فى كافة المجالات وانطلق فيلمى الذى لم يعرضه التليفزيون المصرى حتى الآن ليعرض لمرات كثيرة فى العديد من القنوات التليفزيونية والفضائيات العربية دون حذف ما رأى هؤلاء الرقباء المرتعدون فى دهاليز رقابة المصنفات الفنية المظلمة ضوءا وعقلا ضرورة حذفه ، وانتشر الفيلم مثل غيره من الأفلام التى عوملت بشكل يماثل أسوأ من قبل رقابتنا المسلطة على رقابنا ، وأصبح موضوع المنع غير ذى معنى سوى الإصرار على الجهل والتخلف إلى الدرجة التى قيل معها إن النعامة قد أصبحت ممثل الرقابة التى تخفى رأسها فى الرمال ظانة أنها مادامت لاترى العالم فإن فضائيات العالم كله لا تراها .

وبعد مرور سنوات عديدة تغير فيها العالم أكثر من مرة ، أصبحت جريمة الرقابة على المصنفات الفنية أكثر فداحة ، وذلك عندما قامت مجلة " شاشتى " بتوزيع فيلم " ثلاثة على الطريق " وبعد أكثر من عشرة أعوام على صدور طبعة الفيديو الأولى منه حيث قامت الشركة التى تقوم بتوزيع فيديو الفيلم بحذف جميع المشاهد الصامتة التى قامت الأيدى الرقابية الآثمة من قبل بحذف حواراتها ، ليصبح الحذف صوتاً وصورة بعد أن كان صوتاً ، فقط بل وقامت هذه الشركة بارتكاب جريمة جديدة بإعادة منتاج الفيلم رغم مخالفة ذلك لقانون ما يسمى بالرقابة على المصنفات الفنية الذى يمنع أى حذف أو إضافة لما قامت به من عسف تجاه أفلامنا بقراراتها الأبدية التى لا تتغير بتغير الأزمنة والعصور ، وكأنه قدر لمصر أن تعيش فى ثلاجة يتجمد فيها التاريخ والفكر والإبداع المصائر ، إن هذه التصرفات المجرمة قانوناً ، تجرى تحت سمع وبصر الرقابة وبعلمها فى فوضى عارمة يحق معها لأى " طالبانى " متهوس وما أكثرهم فى بلادنا ، بأن يعبث بأفكارنا وآرائنا ثم بمصيرنا فى غفلة ، وتواطؤ مجتمع يفقد تدريجيا آليات تقدمه ونموه وأزدهاره .

اتصلت وقتها بالدكتور مدكور ثابت رئيس الرقابة السابق مذكراً إياه بالقانون الضائع لجهاز لا يوجد أساس دستورى لوجوده ، ووعد باتخاذ اللازم ولكنه ترك هذا الجهاز فجأة ليعود إلى موقعه الأصلى كأستاذ ورئيس لأكاديمية الفنون قبل أن يسعفه الوقت لانخاذ هذا الجهاز الذى أصبح لزوم ما لا يلزم . .

فهل يعاد النظر من قبل هذا الجهاز الرقابى المسلط على عقولنا وقلوبنا لإبراء أفلامنا من عقوبة الرقابة الشاقة المؤبدة التى فرضت عليها فى أزمنة من الغيبوبة والقهر وتعرضت للعبث والتشويه ؟ وهل يعيد الناقد على أبو شادى الذى أصبح مسئولا الآن عن جهاز الرقابة على المصنفات الفنية النظر فى أعمالنا التى طالها كل هذا العبث والتشويه لتخفيف أحكامها الباطشة بأفلامنا ؟ وهل يصل إلى قرار حاسم بأن نسخة الفيديو لا تنقص كادر واحد عن نسخة الفيلم السينمائى الذى تم التصريح بعرضه فى دور العرض ، مع إعادة المشاهدة فى كل مرة يصدر فيها تصريح بتجديد طبعة الفيديو لأى من الأفلام التى تمت مراقبتها من قبل بهدف تخفيف العقوبات عليها مادام قد ثبت مع الزمن أنها " أى الأفلام " لم تتسبب فى انحلال اجتماعى أو فساد سياسى أو استبداد أو بيروقراطية أو نهب بنوك أو انهيار اقتصادى أو انهيار فى التعليم أو تلوث فى البيئة أو انهيار الخدمات الصحية أو استخدام مبيدات مسرطنة ، إلى آخر ما يمكن قوله بهذا الصدد . . وبالطبع فإن تخفيف الأحكام الرقابية على أفلامنا ليس لحسن سلوكنا ولكن لسوء سلوك هذا الجهاز تجاه ما وقع علينا .

ولحديث الرقابة بقية فى وضع تستحيل فيه الرقابة على ما نقوله أو نكتبه أو نبدعه فى عالم نفض يده ثم غسلها مائة مرة تطهرا من رجسها .

لا لمحاكم التفتيش في القرن الواحد والعشرين

حيدر حيدر

" حين هبط ثوار حرب التحرير الجزائرية من الجبال المصبوغة بالدم كانوا يهللون بتكبيرات عصور الفتح الأولى ، كل مجاهد علق على صدره قرآنا عربيا كان بمثابة الرقية ضد رصاص المستعمر الصليبي "

هذه الفقرة ترد في رواية " وليمة لأعشاب البحر " في الصفحة ٥٠٣ .
هذا الاستشهاد من النص الروائي وما سيليه من فقرات أخرى ليس دفاعا ضد الافتراء والاجتزاء والتهويل والتأويل والإثارة والغوغائية ، بل هو تقرير لاقتناع تاريخي يسجله النص دونما تحريف أو إثارة أو إعلان موقف درامي مؤثر .

هو ببساطة وعفوية رمز حقيقي وتاريخي ينبع من جذور التراث العربي الإسلامي حين يواجه الغزاة والمستعمرين ، وهذا الرمز المجاز متأصل في جوهر الروح التاريخية للوعي العربي - الإسلامي إبان المحن التي تهدد الهوية القومية وتنذر بالمحو والانقراض ، وهذا الموقف أساسي وجوهري في قناعاتي الذاتية ، حين واجه أبو ذر الغفاري يهودياً مستتراً بالإسلام لعله عبد الله بن سبأ أو أحد أتباعه ، وهو يلبس قناع الدين ، متهماً الصحابي الكبير بنقص دينه ، صاح في وجهه أتعلمنا ديننا يا ابن اليهودية ؟

وأنا لا أريد أن اتهم الشهم الإسلامي محمد عباس بالعبارة إياها ، لكنني أسأله : من نصبك قيما ومحاسباً وقاضياً للإسلام ؟ وكيف تبيح لنفسك إقامة محكمة تدعو من خلالها المسلمين لإقامة الحد على مسلم حر له اجتهاداته وآراؤه في تراثه المطروح في حقل الجدل منذ المعتزلة حتى اليوم ؟ .

هل ينبغي العودة إلى النصوص إلى " من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر " وإن الله يهدي من يشاء إلى حرية الإسلام الأول الذي أورد مطاعن الكافرين ضد النبي الذي وصفوه بأنه شاعر ومجنون . كما جاء في الآية القرآنية " إن هي إلا أساطير الأولين " إلى آخر الآية ، الآيات التي أثبتت أقوال المشركين ضد النبي

والدين ، أيكون الطبيب محمد عباس الغيور على إسلام محمد أكثر غيرة على الإسلام ، ومزايداً على ديمقراطية النبى الذى ارتضى الجدال بسماحته العظيمة قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام .

نحن نعرف ديننا وتراثنا ونعرف تاريخنا وأسلافنا ولسنا بحاجة إلى فقهاء ومتعصبين ودعاة يرشدوننا إلى الصراط لكنا نعرف فى الآن ذاته مواطن الخلل والتأويل الجاهلى ، وكهوف الظلام التى يستودع فيها الإسلام السياسى المغلق والاحتكارى لفئة تتاجر بالإسلام وترشق التهم لمن لا ينتمى لقيادتها العصبية .

بإمكان هذا الذى يثير الضجيج فى صر الآن ضد روايتى " وليمة لأعشاب البحر " أن يستنفر الغوغاء والعصابيين الذين شوهوا مصر العربية ومصر الحضارة ومصر الثقافة التنويرية ، كما بإمكانه من خلال إجتزاء مقاطع مفصولة من سياقها إثارة زوبعة تلفيقية ، وهياج لا عقلانى باسم الدين والغيرة على الرسول والقرآن ، لكنه يحايد عن الفقرات التى تقول " لقد قرأتم ماركس ولينين وانجلز واستكنتم ، تحملون كلماتهم كالمقلاع وترشقون بها ، وهكذا تعتقدون أنكم محصنون وضد المباغتة ، إنما ترون جيدا وصوابا كيف يتشكل العربى الجديد فى العصر الراهن ذلك القديم كان مبلوراً ومحصناً ومنيعاً بالإسلام محمد القرن العشرين هذا ما نحتاجه فى هذا العصر المضطرب " .
هذا ما تقوله رواية وليمة لأعشاب البحر فى الصفحة ٨٧ ، وهذا القول الفصل يغض الطرف عنه حامى حمى الإسلام ومحتكره ، كما يحايد عما جاء في الصفحة ٦١٣ ، ٦١٤ من الرواية وما فيها من أصوات دينية ترتفع كدعاء وتسبيح للبارى والرسول والمولى " بارينا ومنشئنا وفانينا فاطر السماوات والأرض وما بينهما ، رب الأولين والآخرين رب البشر والشجر والحيوان والماء والسخر والسحاب والطير اجمعين ، أنقذنا فى هذا الزمان الخطير يا من تقبض على الرعد والصواعق وموازين العدل ويا من تعرف ما فى أرحام الأمهات وفى أى أرض كل نفس ستموت " إلى أخر الفقرات .

هذا الاستشراف التنويرى لا يراه جلاد العصور المظلمة ، وهو يستدعى قبيلته الثأرية تحت الراية السوداء .

أنا لا أدافع عن نفسى ولا عن روايتى بقدر ما أسجل الحقيقة ، والحقيقة وحدها هى المقدسة ، والحقيقة وحدها بما هى أفق المستقبل والحضارة القادمة

تدافع عن ذاتها فى أعماق القراء والمتلقين والمثقفين العرب الذين احتفوا بالرواية ورأوا فيها فضيحةً وتشريحاً للظلام والاستبداد العربى والعلاقات المزيفة والتلفيق التاريخى .

إن عصور التنوير تتقدم رغم الظلمات المحيطة بزماننا العربى ودعاته اللاعقلانيين ، وفى هذه البرهة الحرجة تنتصب قامات المثقفين التنويريين والعقلانيين صارخة ولو تحت مقاصل القتل والإعدام : لا لمحاكم التفتيش فى القرن الواحد والعشرين لا للظلامية المستترة والهائجة تحت عباءة الدين المزيف ، لا للقتل الغريزى فى جزائر المليون شهيد ، ومصر العظيمة والمشعة بطه حسين وعلى عبد الرازق ونجيب محفوظ ونصر حامد أبو زيد وفرج فوده وسائر المثقفين الديمقراطيين الذين يرفعون راية الحرية والتنوير عالية فى مصر العربية .

فى دعوة المهووس محمد عباس : " لا إله إلا الله من يبايعنى على الموت " وعبر شتيمته ونعتى " بالفاجر الفاسق الكافر ابن الكافر " لم يرهبنى أو يقلل عزيمتى لكننى تساءلت بهدوء " هل يبيح الاسلام هذا الانحطاط والتسفيل اللا أخلاقى . الإسلام الذى دعا إلى المعروف والمجادلة بالتى هى أحسن ، الإسلام الذى دعا إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

إننى أقول ما قاله الرسول " محمد صلى الله عليه وسلم " : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون لا أقولها من موقف الضعف إنما من موقف التسامح والقوة فى آن .

إن بإمكانى توجيه ما لا يحصى من الشتائم للفقيه الجاهل المدعو محمد عباس المحرض لكن ثقافتى وذوقى الحضارى ومعرفتى العميقة بروح الإسلام الرسولى تأبى ذلك .

أرفع قبضتى عالية حتى حدود السماء تحية لشعب مصر ومثقفى مصر العربية الذين أزرونى فى هذا المضيق الذى باغتنى فى استراحة البحر الخادعة .

بيان إلى الرأى العام
بخصوص مصادرة
كتاب مسئولية فشل الدولة الإسلامية

جمال البنا

قضية مصادرة كتاب مسئولية فشل الدولة الإسلامية لها شقان :

الشق الأول : وجود هيئة أعطاها أحد القوانين حق المراقبة والتوصية بالنشر من عدمه ، للكتب التى تعالج الشأن الدينى أو تتطرق إليه ، وكأنه جعلها الهيئة المختصة بالدفاع عن العقيدة الإسلامية ، ثم لم يقف عند هذا بل أعطاها الضبطية القضائية ، فكأنه جمع فى يدها السلطة القضائية والسلطة التنفيذية .

نحن نقول إن هذا خطأ فاحش أصلا وفرعا وأنه يخالف توجيهات القرآن الكريم الذى قرر حرية الاعتقاد والذى جرد الرسول وهو حامل الدعوة من أى سلطة ، فليس هو جبارا ولا مسيطرا ولا حفيظا ولا حسيبا ، ولا حتى وكيلا عن المؤمنين ، وإنما عليه أن يبلغ الدعوة وأن يصدع بالحق فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ومن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ، وهذا النص الأخير يجعل الهداية والضلالة ، الإيمان والكفر أمراً شخصياً لا دخل فيه للنظام العام لأنه قضية فكر ، واقتناع وضمير .

ومن هنا فلا يتصور أن يعطى القانون هيئة ما سلطة لم يمنحها القرآن الكريم ، نفسه للرسول .

كما أن فكرة احتكار هيئة للدفاع عن الإسلام فكرة يأباها الإسلام لأن المؤمنين عدول يسعى بذمتهم أدناهم ، ورب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره وكل مسلم من حقه أن يدافع عن الإسلام ، وفى المسلمين اليوم من هم أجدر وأكفأ من علماء مجمع البحوث الإسلامية لأنهم يصدرون عن إيمان وعن دراسة وليس بوازع الوظيفة والمرتب .

أما الجمع بين حق إصدار الأحكام وتنفيذ الأحكام بالفعل فهذا يخالف مبدأ

أساسيا من أسس الحكم الدستورى هو الفصل بين السلطات .

ووجود هيئة تمنح سلطة للرقابة والوصاية على الفكر بقدر ما يخالف توجيهات القرآن الكريم ، فإنه يخالف الحقوق الأساسية للإنسان ، ويقفل الباب فى وجه التقدم بل ويخالف نص الدستور المصرى .

بالنسبة لهذا الشق يكون على الصحافة وعلى هيئات حقوق الإنسان ومنظمات المجتمع المدنى وأحرار الفكر جميعا الدفاع عنه لأنه دفاع عن أقدس حق من حقوق الإنسان ، ويكون عليها جميعا أن تشن معركة تستهدف قصر سلطة مجمع البحوث الإسلامية على مراقبة طبعات المصحف ، فإذا وجدت خطأ أو انحرافا فيكون من حقها أن تتدخل بالطرق المشروعة .

وليس هناك مساومة فى هذا المطلب . . .

أما الشق الثانى : فقد نشأ نتيجة لأنى أرسلت كنوع من التحدى وكرد على التوصية بعدم الطبع والتوزيع لكتابى مسئولية فشل الدولة الإسلامية فى العصر الحديث ، وبحوث أخرى " ثمانية كتب من مؤلفاتى الأخيرة مطالبا المجمع إذا كان يصر على وظيفته الرقابية أن يقرأ هذه الكتب ويقدم الرأى عنها ، وهذه الكتب تمثل فكر دعوة الإحياء الإسلامى الذى يختلف عن الفكر الذى يعتنقه مجمع البحوث . إن هذا الإجراء سينقل المعركة من مصادرة كتاب إلى صراع ما بين تصورين للإسلام ، تصور للإسلام كرسالة هداية تعمل لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ويكون جهادها هو فى سبيل كرامة الإنسان وتطبيق القيم العليا من عدل ومساواة وحرية ومعرفة وتقوى ، وتصور أخر تراثى طقوسى مذهبى يعنى بالجزئيات ويعتمد فى كل شىء على أقوال الآباء والأجداد ، وينظر إلى العصر بعيون ميتة وفكر مغلق .

وهذه معركة رهيبة ، طويلة ، لن يقتصر أمدها على عدد من السنين بل لا بد من عقود من السنين ، ودورنا أن نقوم بالخطوة الأولى على المسيرة ، وأن نضرب الضربة الأولى ، وأهم من هذا كله وضع تصور محكم وشامل لما يكون عليه الفهم السليم للإسلام

وبقدر مناصرة ودعم أحرار الفكر لهذا الشق بقدر ما نوفر على الأمة عدداً من السنين الثمينة .

فى ختام هذا البيان فإنى أطالب جميع المعنيين بالحرية وحقوق الإنسان ومنظمات المجتمع المدنى والصحفيين والكتاب والنقابيين بتكوين لجنة دائمة تعمل لإلغاء كل قانون أو قرار يمنح هيئة ما سلطة ووصاية على الفكر دينياً أو اجتماعياً أو أدبياً ويقصر سلطة مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة على مراقبة طبعات المصحف الشريف وتظل اللجنة قائمة حتى يتحقق هذا الهدف الذى لا تتحقق حرية الفكر إلا به .

نقطة ضوء ليس أكثر

إبراهيم نصر الله

أحب أن أقول فى البداية إن هذا ديوان " باسم الأم والابن " مكرس بأكمله للأم التى هى أمى ومشاعرى كابن ونحو أبى الذى رحل قبل ثلاث سنوات والديوان يسرد حكاية اقتلاعهما من فلسطين خلال خمسين عاماً بمعنى أنه سيرة خاصة وسيرة عامة .

ولذا فإن جوهر القصائد يحيل إلى الموضوع الإنسانى بتقاطعه مع الموضوع الوطنى ، والطريقة التى يعبر بها هؤلاء البشر البسطاء بطيبة وحميمية عن مشاعرهم تجاه بعضهم ، ولذا ليس للديوان أى علاقة بأى تفسير دينى سوى التفسير الإيجابى فى النهاية ، وهى محبة الوالدين واحترام مشاعرهما كبشر لهم الحق فى الحياة وفى الوطن ، كما أن معظم قصائد الديوان تجئ على لسان الأم وهى أم مؤمنة أنجبت أربع بنات وستة أولاد أنا أحدهم وأحب أن اقول بأننى مدين لها بأنها المعلمة الأولى التى زرعت فى أبنائها هذه المبادئ الأخلاقية والإنسانية .

وشخصيا سأكون أبا سعيدا للغاية لو أن أبنائى تعاملوا معى مستقبلا " حين يكبرون " بهذا الحس الموجود فى الديوان أو حتى بنصفه خاصة انى قابلت قراء فى أكثر من عاصمة عربية قالوا لى إن هذا الديوان أعاد ترتيب علاقاتهم بامهاتهم وأبائهم وأبنائهم أيضا .

هذه الظاهرة ,, ظاهرة التكفير

ليس لدى شك بأن هذه الظاهرة مفتعلة من قبل أناس لا يجرؤون على خوض أى معركة حقيقية ولذلك فإنهم يحاولون إثبات وجودهم من خلال هذه المعارك الملفقة لأننى أرى وفى واقع مزر كالذى نعيشه فى العالم العربى ، أن معاركهم هذه غير برئية أبدا ، كما لو أنه لم يبق للأمة العربية من أعداء سوى كتابها وفنانيها الشرفاء .

وأحب أن أقول أيضا : إن النظام العربى لم يستطع هزيمة الثقافة رغم كل محاولاته الرامية لتهميشها ومحاصرة مبدعيها بل وتصفيتهم أحيانا ، لذا فإن حلقة الهجوم على هذه الثقافة من بوابة الدين يبدو أنها الاستراتيجية الجديدة

الرامية إلى تشويه الأقلام الوطنية الشريفة ووصمها بالكفر على هذا النحو الفج والسطحى لأنهم يعتقدون أن مثل هذه التهم تؤثر فى الرأى العام .

لذلك ليس لدى أدنى شك كما أشرت بأن المعركة مفتعلة ، وملفقة وليس أدل على ذلك من أنهم قاموا باختراع كل ما يوصلهم إلى غرضهم ، إلى درجة اختراع نصوص جديدة عبر إعادة تشكيل الكلمات مع أنها وردت فى الديوان بتشكيلها الصحيح ، كما أننى أعجب من هذه الجرأة على إرسال كاتب مثلى إلى جهنم من قبل رجال يدعون بأنهم علماء دين وأقول إن أى مؤمن بسيط لا يمكن أن يقدم على إرسال قطة إلى النار بهذه السرعة فما بالك بإرسال إنسان ؟

ولذا فإننى أستغرب صمت الحركات الإسلامية المستنيرة أمام هذا النمط من الاتهامات ومطلقيها فمواجهة مثل هذه الظواهر يجب أن تكون فى صلب مهمات هذا التيار لأنها تسئ إليه كما هى فى صلب مهمات التيارات الوطنية أيضا ، إذ لا يعقل أن يتم السماح لمثل هؤلاء باقامة نقاط حدود بين السماء والأرض لايجتازها إلا ذلك الذى يرضون عنه ، بعد أن أرهقتنا ومزقتنا نقاط الحدود المترامية بيننا كأمة واحدة .

لقد قيل أكثر من مرة أن الثقافة خندقنا الأخير ، وهذه الهجمات هى مؤامرة بشعة تهدف إلى إيجاد مسافة عازلة بين الكتابة الحقيقية وإنساننا العربى ولنتذكر أنهم لم يجرؤوا فى أى يوم على مهاجمة كاتب من الكتاب المأجورين أو الذين يكرسون اقلامهم لمديح أعداء شعوبنا لذا دعنى أتساءل : لماذا لا يهاجمون سوى الكتاب الشرفاء ؟

توقيت الحملة

لقد صدر هذا الديوان منذ عام ونصف عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر فى بيروت ووزع هنا فى الأردن والعالم العربى ، وهو فعلا من أكثر الدواوين قرباً إلى قلبى لكن هذا الهجوم جاء مع استراتيجية جديدة يطبقها هؤلاء : الانفراد بنا واحد واحد على فترات ؛ كانت قديما متباعدة أما اليوم فهى متقاربة بل ومتلاصقة ، كما جاء متزامنا مع صدور مشروعى الروائى الذى أعمل عليه منذ أواسط الثمانينات وأعنى " الملهاة الفلسطينية ظل المحاة وطيور الحذر " وهو مشروع ضد الروايتين الرسمية والمعادية لأخطر قضية عاشتها الأمة العربية خلال قرن ، ويتكون من عدة روايات كل واحدة منها ترصد روح فترة محددة من تاريخ القضية الفلسطينية ، ورغم أن الرقابة فى أكثر من مكان قد توقفت طويلا ،

كما علمت قبل إجازة هذا العمل ، إلا انها لم تستطع اتخاذ قرار بمصادرته وسمحت به ، لذا فإن محاولة تكفيرى على خلفية اختلاق معركة الديوان محاولة لعزل هذا المشروع أيضا ومحاصرته عبر إلصاق التهم السافرة بمؤلفه ، ببساطة لأنهم لا يريدوننا أن نتذكر أو أن نرى فى زمن العماء الكبير هذا .

لقد أفنيت عمرى كفيرى من أدباء هذه الأمة لقول ما لدى بجرأة ودون خوف ، وتحملنا الكثير ككتاب وكبشر ، ولذا فإن قلوبنا وكلماتنا غير قابلة للتحريف لأننا عملنا طويلا كى نكتبها بالنور وليس بالظلام وهى سجل ليس من السهل تدميره أو محوه أو تشويهه ، لأنها قضايا عادلة ولأنها ليست مجرد كتب فقط أو آراء بل هى نحن فى حقيقة الأمر .

الجميلات أمام القضاء

محمد عبد السلام العمرى

أصبح لدى كل واحد منا هزيمته الخاصة ، التى هى لا بد وأن تكون بالضرورة هزيمة عامة ، فليس الذى حدث لموسوعة المرأة " الجميلات " بعيداً عما يحدث الآن وفى ظنى أن الهزائم العامة ، مرجعها فى الأساس هزائم أفراد ، تكون شعوباً ، تم قهرها وقمعها برسائل وأدوات النظم المتعددة وعملائها .

وكان مما شجعنى على الإشارة إلى هذه المحاكمة أن ثمة اتهاماً مستتراً شاع بين مثقفى هذا الزمان ، مفاده أن ثمة صفقة مقايضة طرفها صمت الكاتب من جهة وللجهات الأخرى بالمقابل تقدير ذلك ، وان ليس هناك قضية او محاكمة أو خلافه وما هذا كله إلا دعاية .

كان وما زال فى ظنى أنه يصعب على المرء فى هذا الاوان أن يروى تجربة خاصة وإن كانت تهم جميع المثقفين الذين هم فى الحقيقة مثقفون وليسوا أدعياء ، يهربون عند أول اختبار فهذه القضية تخص الحريات بصفة عامة وحرية التعبير بصفة خاصة .

إذ كنت أعتقد ، - وما زلت - إننى كتبت عملا قال لى كل من قرأه أنه على درجة عالية من الإحساس الجمالى ، استحق عليه مكافأة وجوائز ، إن استغرقت كتابته أربع سنوات كاملة ، قسوت على نفسى ، وروضتها ومنعتها من جميع أنواع المتع بما فيها السفر الذى أعشقه وكل أنواع الفنون التى أتآلف معها .

وقد استعنت بمئات المراجع العربية والأجنبية . ودوريات وحوليات جرائد ومجلات وكتب وفى مختلف ما يخص المرأة فأنا اكتب موسوعة المرأة للمتخصصين وليست للعامة وفى كتابة مثل هذه الموسوعات تقتضى الأمانة الأدبية والعلمية أن يذكر الكاتب كل شىء ، كل ما يخص المرأة كل ما يهمها وفى ظنى أن لا حياء فى الدين كما أن لا حياء فى العلم .

فور صدور الموسوعة استقبلت استقبالاً مذهلاً ، فرح بها المتخصصون

والأدباء لاقت ترحيباً منقطع النظير ، إلا أن الذى حدث كان أغرب من الخيال خاصة فى هذا الوقت ، عصر السماوات المفتوحة ، حيث كان لوزير ثقافة مصر رأى آخر فقد وصف الكتاب بانه رهيب رهيب وأنه موجود ومعروض دون أن يتعرض له أحد .

جاء ذلك في حديث أجرته مجلة روزاليوسف فى ١٢ / ١ / ٢٠٠٣ بمناسبة افتتاحها لمقر قديم تم ترميمه ، وبدا أن هذه الفقرة الخاصة بكتاب " الجميلات " تم إقحامها عنوة وأن الحديث بالكامل بسبب هذا الكتاب عندئذ سأله الأستاذ والكاتب الكبير / محمد عبد المنعم رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير روزاليوسف هل هو جنس فاضح ؟ فإذا بوزير ثقافة مصر يقول : إنه فضيحة جنسية .

وقد كرر أنه كتاب رهيب أكثر من مرة ، وكان الجديد هو استعداء - روزاليوسف - التى كانت منبراً وخط الدفاع الأول عن حق وحرية التعبير على مدى تاريخها ، وزير ثقافة مصر على حرية التعبير ، وعلى الرواية ، وعلى الكاتب حيث لم تصدر من أية جهة حكومية والناشر قطاع خاص ، كما أن الكاتب ليس له علاقة أيا كانت بأى جهة حكومية ، فمنذ أن تخرجت فى كلية الهندسة ١٩٧٥ ، لم التحق بأى عمل أو جهة حكومية ، ولم أشغل اى منصب تابع لها ولست فى أى لجنة من لجان وزارة الثقافة ولم أحصل على تفرغ ولو لمدة شهر واحد ولم أسافر إلى أى مكان ، داخل الوطن أو خارجه على نفقتها ولم أحصل على أى جائزة من جوائزها ، وأنأى بنفسى وأبتعد عن أى مكسب من مكاسبها ، أو من أى جهة أخرى مصرية كانت أو عربية ، ولم تناقش لى كتاباً ولم يندرج أى كتاب من كتبى فى لجان دراستها المتعددة وقد تحملت تكلفة كل هذه المراجع ، وأنفقت أربع سنوات من عمرى مع حرق أعصابى ودمى فى كتابة هذه الرواية .

فما الذى أغضب وزير ثقافة مصر كل هذا الغضب رغم أنه قال إن هذا الكتاب أربعمائة صفحة وهذا غير دقيق وقد فهم الجميع أن سيادته لم يقرأ الكتاب ، لأن الموسوعة خمسمائة صفحة ، وأن كاتب التقرير الذى قدمه للوزير لم يكن دقيقاً .

وكان مما يحيرنى أن تساؤلاً خطر على ذهنى ، أليس لدى وزير ثقافة مصر شاغل أو مشاكل واهتمامات أخرى يهتم بها غير هذه الرواية ، علما بأن المشاكل متوافرة وكثيرة وتتضخم يوماً بعد يوم لدى كل مؤسسات وهيئات وزارة الثقافة ،

والأهم أنه ليس لهذه المشاكل مثل فى أية وزارة أخرى أو فى الثقافة أننى لست معنيا بكل هذا رغم أن الثقافة المصرية وتطورها وازدهارها وبهاءها تهمنى بصفة خاصة .

كان ذلك فى ٦ / ١ / ٢٠٠٣ وبعد أسبوع واحد من هذا الحديث شن الكاتب والمفكر الكبير الاستاذ / أنيس منصور هجوماً عنيفاً على الكاتب وعلى الكتاب فى جريدة " الأهرام " فى ١٢ / ١ / ٢٠٠٣ وكان الهجوم قاسياً وظالماً لأنه اتهم الكتاب ظلماً بأنه كتاب جنسى ، وأن الكاتب يستخف بالمقدسات الدينية ، ولا يجب أن نعفو عنه ويجب أن يموت بأيدينا وعلى أيدينا وأمام عيوننا وأن نحرقه إذا استطعنا ، وأن هذا الكاتب مختل عقليا وعشرات الاتهامات والألفاظ النابية .

فور هذا مباشرة أثيرت تساؤلات عديدة ، من جهات كثيرة ، هل هناك ثمة تربص بالكاتب وبروايته ، التى لم يكن البعض قد تمكن من قراءتها بعد ، أم أن التربص مع سبق الإصرار ، وأن السبب هو الإبداع الروائى والقصصى الذى كتبه إضافة إلى هذه الرواية .

كان الإيقاع سريعاً جداً ، فما الذى يستطيع المرء أن يفهمه من هذه السرعة كأنها عملية مرتبة ومبيتة ، ومخططة ومرسومة ، إذ بعد مقالة الأستاذ قامت مباحث المصنفات الفنية بمصادرة الرواية يوم ١٥ / ١ / ٢٠٠٣ قرار نيابة أمن الدولة العليا رقم ٣٢٠ لسنة ٢٠٠٣ فقد تم الهجوم والبحث عن الرواية إلى أن وجدوا سبع نسخ لدى أحد بائعى الجرائد تم عمل محضر بها ، ثم تم تحويل الكاتب إلى المحاكمة ، دون أن تسأل النيابة سؤالاً واحداً .

ففى تمام الساعة الثانية يوم السبت الموافق ١٨ / ١ / ٢٠٠٣ رن جرس التليفون كان الزحام شديداً جداً فى شارع صلاح سالم والكل يسرع لمشاهدة مباراة كرة القدم بين فريقى المنتخب المصرى وفريق جالاتا سراى التركى قال محدثى بأدب جم ، مساء الخير يا أفندم ، هل أنت الأستاذ ... ؟ مساء النور نعم ... قال أنا أسف للإزعاج . أنا العميد على من مباحث المصنفات الفنية ، قلت أهلاً وسهلاً . من فضلك تشرف بكرة الساعة الحادية عشرة صباحا أمام السيد المستشار رئيس محكمة شمال القاهرة ، سألته ... يا ترى ؟ قال بخصوص رواية الجميلات قلت هل هناك ما يستدعى المحاكمة ؟ قال بسيطة إن شاء الله ثم تواصل يا ريت يكون معاك محام قلت هل هذا الكتاب خطير إلى هذه الدرجة وبدا

من سؤالى أن هناك أهمية قصوى قال لا .. أبدا .. ثم واصل بجدية كنا جئنا إليك وقد صدقت كلامه تماما ، بالطبع من وجهة نظرى ، أو أننى تمنيت ذلك بالفعل طلبت رقم تليفونه وأعطانى رقم القضية ، ثم أكد على الميعاد ، وعلى المكان ، لقد توجست خيفة ، فمباحث المصنفات الفنية لها تواريخ ، وأن القضايا التى تقدمها نتائجها لا تطمئن ، وكان السؤال الذى تبادر إلى ذهنى وإلى أذهان الذين تحدثت معهم - هل استطاعوا قراءة الرواية فى مدة ثلاثة أيام ؟ من كتابة الأستاذ فى ١٢ / ١ / ٢٠٠٣ حتى مصادرتها فى ١٥ / ١ / ٢٠٠٣ وكيف استطاعوا إعداد هذا التقرير الذى بالضرورة سيشمل ويحيط علما بكتاب ، مكون من خمسمائة صفحة وبأسئلة دقيقة وحرجة ومن متن الكتاب ، ومن ثم اتخاذ قرار المصادرة فى هذه المدة الزمنية البسيطة ، إذن الموضوع وسير الأحداث يؤكدان أنهم قد تعرضوا للكتاب فور صدوره ، وما كلام الوزير والأستاذ إلا إضفاء الصفة القانونية للسيناريو الذى أعدوه سلفاً تمهيداً لمصادرة " الجميلات " ومحاكمة الكاتب .

تحتاج قراءة الجميلات إلى وقت طويل فالكتاب متخصص فى كل ما يخص المرأة " فنونها ، أمراضها ، رياضتها ، عشرات النماذج المتعددة من كل نساء العالم ، الزعيمات ، العالمات ، المناضلات ، الفنانات ، القائدات ، المجرمات ، الجاسوسات ، العاهرات ، قبلاتها ، ضحكاتها ، دموعها ، كل أنواع الفنون ، الغناء ، الرقص ، التشكيل ، الرسم تاريخ الملابس ، السفر ، الروج ، المكياج ، العطور ، أكلاتها ، مساحيقها ، سجونها ، شراباتها ، مشداتها ، كيلوتاتها ، قدراتها الخارقة على إعادة خلق الحياة من جديد ، زواجها بأكثر من ثلاثين طريقة إسلامية حسب الشريعة .

وكان فى ظنى وأنا أكتب هذا العمل ، أن أقدم كتاباً جديداً مغايراً لم يسبق لأحد أن تعرض لمثل هذه الفكرة فى سياق علمى روائى ، سواء فى مصر ، أو فى الوطن العربى ، أو فى العالم ، وأننا جميعا نستطيع أن نفاخر به العالم ، وأن هذا الكتاب يحسب لمصر ، وجرأته تحسب لهذا العصر وليست ضده كما يريد البعض أن يتهموه ، وقد بدا لى من مثل هذه القضية كما قرأت أن الحالة الراهنة لثقافتنا المصرية لا تعطف على الجديد ولا تحترم الاختلاف ولا تحترم الخروج على السائد والمألوف ، وأن كل جديد يقلق حدودها الآمنة ، لأنه خارج نطاق سيطرتها ، خارج عن الترهيب والترغيب ، وأن هذه الثقافة ثقافة ظلام وقهر ، تقمع وتبطش بالساعين للتجديد فى معظم مجالات الحياة فالثقافة تضغط لفرض التسليم الجماعى المطلق والانصياع الإجبارى لتفسير واحد وتفصيلى لجميع

قضايا الوجود الإنسانى والسياسى والحياة الأسرية والإجتماعية وشتى أنواع العلاقات والأنشطة ، يتم فرض هذه التفسيرات أحياناً بقوة العادات والعرف وأساليب الضغط النفسى والعزل الاجتماعى والثقافى وأحياناً بقوة القانون والشرطة .

هل نصدق أن الابتكار ممكن فى مجال العلم والتكنولوجيا مع تحريمه فى مجال الإبداع الروائى والأدبى ، التجديد والابتكار يقوم على ثقافة عامة ففحوى الابتكار وجوهره هو سيادة العقل النقدى والذى لا يقبل بفكرة لأنها لها قوة البديهة ، أو لأنها محروسة بقوة البوليس والقانون ، أو بالضغط النفسى و الثقافى .

ويستحيل عملياً أن تقوم الدولة بقمع الفكر النقدى والحق فى الاجتهاد والابتكار فى مجال ما وتشجيعه فى مجال آخر والعودة إلى تلك الممارسات التى تقمع حرية التأمل والبحث فى النقد والتساؤل يؤدى بالضرورة إلى نفس النتيجة الآن بصورة أكبر مما حدث فى الماضى ، وفى مجال الفكر والأدب يعتقد أنصار المواجهة الأخلاقية الليبرالية أن الآراء التى يرونها ضارة فى الروايات والإبداع يهزمها البوليس والزنازين والمصادرة والمنع ، وأن الحرية من نصيب الآراء القويمة وحدها ، دون أن يبذلوا جهداً فى تقديم حجج عقلانية منطقية لاستئصال الفكر والفن الذى يرفضونه من جذوره ، ويتعرض الإبداع فى مصر لرقابة سياسية وقانونية موروثة منذ أيام قانون المطبوعات رقم ٣٠ لسنة ١٩٣٦ ثم القانون رقم ٣٤٠ لسنة ١٩٩٥ ، وقائمة المحتويات واحدة ، ومن بين المصنفات الفنية ظفر الكتاب ، لأن جمهوره محدود بإلغاء الرقابة المسبقة لكنه لم يسلم من المصادرة ، فسيف العبارات المطاطية لحماية النظام العام والأخلاق القويمة والمصالح العليا للدولة مشروع على الرقابة ، إلا أنه من الجدير بالذكر أن تستدعى مقولة رائد التنوير الأعظم الدكتور / طه حسين فى كتابه مستقبل الثقافة حيث قال : إننا لا نحمى الفضيلة بفرض الرقابة ولكن بمنعها .

ولن تقارن بما حدث فى الماضى من ريادة وتنوير وجرأة وبما حدث الآن من انبطاح وسلبية وإحباط وبأس وظلام وقهر وقمع وسجون ورشاوى وبيع الوطن والأخلاق وتدمير كل المقدسات والايجابيات وتسويد الدنيا فى وجوهنا ، ولقد وصلنا إلى ما وصلنا إليه من إذلال وقهر بفضل الريادة التى تستنبط طرقاً للقهر غير متعارف عليها وإذلالا جدير بنا بفضل أفكار هؤلاء السادة وكتاباتهم

ومساوماتهم ، على كل شيء مقدس جميل فى حياتنا .

هل لأننى تمردت على كل هذه المسلمات تمت مصادرة كتابى وتقديمى للمحاكمة ؟

هل لأن إبداعى مقلق ومعذب ؟ هل لأن أعمالى لا تساوم ؟ ولا تهادن ؟ ولا تبيع ؟

هل لأنها مليئة بالأسئلة الحرجة والشائكة ؟ هل لأنها ناقدة ؟ هل لأنها رؤية موضوعية ؟ غير زائفة وغير مجاملة ؟ ولا تتجمل فاتصفت بعض سطورها بالبذاءة والنابية ، هل لأنها تحلل وتبشر وتنير وتستشرف وتعارض وتعترض وتتخطى الحدود الآمنة ، لذا فإننى لست عرضة للاتهامات فقط بل عرضة للحرق والقتل والاغتيال والتدمير أيضا ، عرضة للانتحار أوللنحر من جميع الاتجاهات والتيارات ؟

أم لأننى أخذت على عاتقى بمفردى كتابة موسوعة المرأة حين فشلت اللجان المتعددة ، ذات الميزانيات الضخمة ، فلم تستطع أن تقوم بإعداد هذه الموسوعة رغم تشكيل هذه اللجان منذ سنوات ؟ أم لأننى أؤمن أن حرية التفكير والتخيل جزء من مقومات الإنسان كإنسان ؟

وكان من مصادر قوتى عدم انتمائى لأى حزب أو شلة ، أو أننى أشغل منصباً رسمياً ، أو لأننى أملك عموداً أو مقالة ، أو غيرها ، لا أملك ما يأسرنى فالذى تملكه يملكك ، أنا خارج نطاق كل هذه الحسابات والمنظومات ، فهل لكل هذا يحدث لى ما حدث ، وما سبق أن حدث هل لأنه لم يعد يوجد من يدافع الآن عن حق حرية التعبير ، مثلما كان فى الماضى القريب وأن لدى كل واحد ما يخاف عليه . . أو ما يطمح إليه والحقيقة إننى مقدر لكل هذا .

كما أن هناك حقيقة لا أستطيع التغاضى عنها وهى أنه منذ انتهيت من كتابة هذه الرواية التى أنهكتنى لمدة أربع سنوات كاملة ، بمعدل عمل لا يقل عن اثنتى عشرة ساعة يوميا ، بدون إجازات ، سواء داخل الوطن أو خارجه ، منذ أن انتهيت منها فى فبراير ٢٠٠٢ وأنا لم أكتب حرفاً واحداً ، أخذت ألف وأدور حول نفسى ، تلخبطت كل مواعيدى ، أصبح ليلى نهاراً ونهارى ليلاً ، وإلى الآن ورغم أنه كان هناك محاكمة بخصوصها ، إلا أننى لم أتخلص بعد من سطوتها ، سيطرتها ، قمعها ، طغيانها ، وكان السؤال الأهم ، ماذا أكتب بعد هذا العمل ،

هل ما سأكتبه سيرضى طموحى ، سأرضى عنه ، هل سيكون فى مستوى الحس الجمالى ، الإبداعى المرتفع للجميلات ؟ أم أنه من الأفضل والأسلم أن يكف الإنسان عن الكتابة ويكفى خيره شره ، يرتاد المقاهى ليلعب الطاولة ويدخن الشيشة ويمارس النميمة ، ليذهب إلى النوادى والفسح ، وصيد السمك ، أى أن يكف عن محاولة الفهم ، أن يكف عن التساؤل ، أن يكف عن القراءة والكتابة ، وأن هذا أسلم .

أن يجلس أمام التليفزيون ويشاهد القنوات الفضائية ويشاهد القنوات الجنسية التى تجتاح بيوتنا على مدى الأربع والعشرين ساعة وأن يشاهد كل الأفلام الجنسية المتاحة ، بالفيديو وعلى قارعة الطريق CD ، وأن يشاهد كل مالم يخطر على بال أحد من خلال الانترنت ، وأن يشاهد كل ما يرضى عنه وزير ثقافة مصر وصاحب المائتى كتاب ، أن يشاهد كل مالا يؤرقهما هذا خير وأسلم وأفضل ، من كتابة موسوعة بها خمسون جملة لا تكون صفحة واحدة من خمسمائة صفحة أقلقت الوزير والمفكر ، مما جعلهما يأخذان على عاتقهما تحويل الكاتب إلى المحاكمة ، رغم أن هذا الكتاب لم توزع منه إلى عشرات النسخ كهدايا للمبدعين والمتخصصين ، علما بأن الكتاب لا يقرأ كمقطوعات ، بل كشبكة من العلاقة تتداخل فيها عناصر كثيرة .

ولن اتحدث عن مطبوعات الوزير ، لأنه من العار أن أذكر أى كتاب حتى ولو كان مملوءاً بتسمية الأوضاع والأعضاء بأسمائها ، بل ووصف الأفعال الجنسية بصراحة تامة

فما الذى حدث بالضبط وما الذى يحدث بالضبط ؟ إن كتبة التقارير ، وهم فئة حقدة وعجزة وفاشلة هم بالفعل الذين يجعلون حياتنا سوداء ، مسمومة لا تطاق ، فهو أو هى ليس لديهم القدرة على الإبداع وليس لديهم الرغبة فى أن يتركوا الآخرين يعملون ، لذا يقدمون التقارير .

تلقيت هذا التليفون من مباحث المصنفات الفنية ، قبل معرض الكتاب بخمسة أيام ، أحسست أن هذا الوقت غير ملائم بالفعل لإثارة مثل هذه القضية ، من قبل الجميع لا استثناء ، إذ أن الجو العدائى للعالم العربى بصفة عامة ومصر بصفة خاصة ، يحيط بنا من كل جنب ، وكل وكالات الأنباء والصحافة تتربص بنا تربصاً واضحاً ، تترصد كل أفعالنا وسلوكنا ، تصريحاتنا ، سلوكنا حتى

استهلاكنا وإنتاجنا وأنهم إذا لم يجدوا كارثة اخترعوها ، وأنهم ما يصدقون أن توجد مصيبة مثل هذه المحاكمة .

كان معرض الكتاب فى الآن ذاته فرصة لإظهار مثل هذا العداء ومثل هذا التربص ، وكنت فى حيرة حقيقية ما الذى يريدانه بالضبط ، فأنا أعتقد انهما يقدران كل هذه الظروف حق قدرها ، فأين النغمة المناسبة حول إثارة قضايا الفكر والمصادرة ، وهل الوقت مناسب لإثارتها فى هذا الوقت ، وقت المعرض ، وكل أنظار العالم تتجه إلينا ، وهل لا يعلم الجميع أن معرض الكتاب يعرض كتباً لمئات دور النشر ، من ثلاث وتسعين دولة ، هل أراد ضرب المعرض بإثارة مثل هذه القضية .

ومن منطلق تقديرى ومسئوليتى حيال وطنى وأبنائى آليت على نفسى أن لا أثير اى نوع من انواع الإثارة أو البلبلة أو الشوشرة أو المشاغبة ، أو أن أحمل الراية وأتزعم المسيرة ، علما أن هذا حقى ، فأنا الذى كتبت هذا العمل ، وأنا الذى هوجمت هجوماً ظالماً وقاسياً ، وأنا الذى طالبوا بحرقى وقتلى ونحرى وكان فى ظنى وتقديرى أن المعرض فرصة لن تتكرر والبعض نبهنى أيضا إلى هذا ، فهناك بالإضافة إلى مئات دور النشر والفضائيات ووكالات الأنباء ، هناك المفكرون العرب والأجانب وهناك الجمهور العريض من أنحاء الوطن العربى ، هناك الندوات والمقاهى ، فرصة حقيقية لكى أدافع عن نفسى وعن كتابى وعن حرية التعبير ، ويدافع الجميع معى بلا استثناء وكانت القنوات الفضائية والجرائد العربية والأجنبية قد ألحت إلحاحاً متواصلة لإجراء حوارات عن المصادرة وإهدار حرية التعبير وحرق كاتب وكتاب ، لقد آليت على نفسى ألا أتعرض بكلمة واحدة تسئ إلى بلدى حتى ولو تمت مصادرة هذه الرواية ، لقد أحسست أن البعض يدفعنى دفعا لعمل قطيعة مع وطنى ، وقد نجح البعض فيما سبق فى عمل قطيعة بينى وبين بعض الأماكن وبعض الأصدقاء ، لقد كان دافعى ومازال فى كتاباتى هو الدفاع عن هوية بلدى ضد كل أنساق القيم الداخلية على تراثنا الحضارى ، والمعرفى ، والثقافى ، وريادة ودور مصر فى كل مناحى الحياة لذا عوقبت بالحصار والتجاهل ، فأنا لا أساوم على شىء ولا أريد شيئا ، ولا أخاف شيئا .

لقد عقلت الموقف ، أنا الذى أقدر مسئولية ما أضطلع به حيال معتقدات وأنساق قيم هذا البلد ، الحمد لله الذى هدانى إلى هذا التفكير ، ولأننى أيضا

أود أن أضع كتابى فى سياق ماكتبته سياق تنويرى ، ريادى ، معرفى ، دفاعا عن حرية المرأة بالفعل ، ليس على المدى القريب فقط ، وإنما على مدى أوسع وأشمل وأبعد وأن يوضع فى سياق تاريخى كعلامة فارقة فى تاريخ الإبداع العالمى والإنسانى .

أضع هذا العمل أمام كل إنسان نزيه وموضوعى ، أمام كل من يقاوم كل هذا الجو الملوث والمحبط ، واثقاً فى المستقبل أننى وهذا العمل سنأخذ حقنا كاملاً ، بقوة دفعه هو ليس بالترويج له إذ أن مغزى التجربة أن الناس يرون جانباً واحداً من كل موضوع ثم يختلفون ، إذ يرى كل إنسان من الأحداث ما يهمه ، ويعمى عما يهم الآخرين .

على أنه من الأهمية بمكان أن أطرح بعض الأسئلة ، مثل : ما الموقف حيال مثل هذه الآراء وما موقفنا وشكلنا حيال العالم المتحضر إذ أثيرت مثل هذه القضية وهل الاختلاف وصل إلى هذه الدرجة من التربص والعداء والكراهية ، علما بأننى لم أتشرف بمعرفة أحد منهما ولم أسئ إلى أى منهما ، فلمصلحة من إذن إثارة كل هذا التشويه والتدمير ، ألا يعرفان أن وسائل المعرفة متاحة ، وأن وسائل الاتصال سهلة وميسرة تماما ، وأن هناك من يدافع عن حرية التعبير فى العالم فلمصلحة من إذن هذا الاعصار الهجومى المخرب ؟

لكن كلما أغلق الله باباً فتح شباكاً ، إذ فى ظل تلك العتمة الكابوسية الجاسمة ، على الأنفاس يصدر قضاء مصر الشامخ حكماً من نور ، فقد أصدر السيد المستشار الأستاذ / أحمد ماجد رئيس محمة شمال القاهرة قراراً تاريخياً بإلغاء قرار نيابة أمن الدولة العليا رقم ٣٢٠ لسنة ٢٠٠٣ القاضى بمصادرة الجميلات وتحويل الكاتب إلى المحاكمة .

وقد تم توقيعه يوم الأربعاء الموافق ٢٦ / ٣ / ٢٠٠٣ ونصه :

" نأمر بإلغاء أمر الضبط والإفراج عن الأشياء المضبوطة "

وقد أصبح هذا القرار فى مصاف قرارات إلغاء المصادرات العالمية الكبرى والمصرية ، كقرار مصادرة رواية " مدام بوفارى " لجوستاف فلوبير ، وعشيق الليدى تشارلى لـ د.هـ لورانس ، وقرار مصادرة كتاب " الشعر الجاهلى " لـ طه حسين .

بقى أن أسجل بالفخر الاستقبال المطمئن والودود والواثق الذى استقبلنى به هذا المستشار العظيم ، متفهماً ومقدراً دور الإبداع وأهميته على مر التاريخ ، لذا فواجب علينا نحن المصريين أن نفخر بقضاء مصر الشامخ ، إذ أنه الحصن الحصين ، وخط الدفاع الأول والأخير عن حرية الإبداع وعن المظلومين ، والملاذ الآمن له ، وعن مستقبل هذا الوطن .